المحفى العراقي الجديد

والمحافي العراقيـــة في التاريخ

Les Académies dans l'histoire de la Mésopotamie.

١ ــ تمهيد

اثبت مكس نوردو المجري Max Nordau من اقطـــاب العصر في علمي الاجتماع والنفس المتوفى قبل ثلاث سنوات في كتابه « روح القومية » : « انه لا يحدد القومية في الحقيقة إلّا اللغة . فباللغة وحدها يعتبر الانسان عضوا في جسم الامه ، وهي وحدها تخوله حق القومية ، كما انها اعظم رابطة بين البلاد والاقوام . »

ولما كانت اللغة العربية لسان الشعب العراقي واللغة الرسمية لدولة العراق فقد اصبح العراقيون باجمعهم مكلفين بحماية ذمار لغة الضاد والعمل على مافيه حياتها ونماؤها . والحكومة مسؤولة عن هذا قبل غيرها لان البـــلاد في طور اجتماعي يجعل الحكومة المرجع الاول في العمران والاصلاح .

ولا يكفي لاعزاز لغة شعب ان تكون اللغة الرسمية للحكومة وتكون قبل ذلك لغة الجمهور اذ بالحكومة تكون اللغة لسان الدواوين فيتعلمها الناشئون ويتقنونها وتجري معاملات الافراد باللغة المذكورة عينها كما هي حال اللغـــة العربية في العراق اليوم ، انما يجب على من بايديهم الحل والعقد ان يبذلوا الجهد في ما ينمي اللغة ويرقيها ويجعلها لغة العلوم والفنون بحيث تضاهي ارقى اللغات العصرية لاعرق الامم في الحضارة .

ولا تحظى اللغة بهذه النعمة إلّا اذا كان هناك مجمع(١) (مجمع علماء) يضم نخبة المتبحرين في اللغة ولهم معرفة بالعلوم والفنون الحديثة فيتعهدون لغـــة الامة بالعناية ويتمشون بها مع تدرج الحياة العصرية جنبا الى جنب .

وقد شعرت حكومة العراق بهذا الواجب فقامت لتؤديه في فجر الحيـــاة المستقلة ، فألفت المحفى العراقي الجديد في هذه الايام .

---

(١) المجمع وزان موسى او معنى كلمة وضعها الاب انستاس مارى الكرملي لتقابل Académie عند الافرنج والعضو في المجمع مجموى . ر.ب.

٢ ــ محافي العراق في العصور الخوالي

ظهر من البحث ان الحمريين (١) هم اول من اسس المجامع العلمية والمحافي اللغوية في العراق ان لم نقل في العالم كله . وورث العرب عن اوائلهم الحمريين اقامة الاسواق ومجتمعات العلم والتجارة والمنافرة والمماجدة ، فكانت اشبه شيء بمجامع العلماء ثم انتقلت من الحياة الجاهلية الى الحياة الاسلامية .

فمن اسواق العرب الادبية القديمة (سوق الحيرة) كان العرب يجتمعون اليها كل سنة للمماجدة . وقد جعل النعمان بن المنذر اللخمي لبني لام الطائيين ربع الطريق طعمة لهم لمصاهرته اياهم بتزوجه منهم .

اما (المربد) في البصرة فهو اول معرض عراقي ومجمع علمي عظيم في الدولة الاموية حتى انهم نعتوه بـ « عكاظ المسلمين » اقاموا فيه سوقا للاداب نظير اسواقهم في الجاهلية فتألفت فيه حلقات المناشدة والمفاخرة (٢) ومجالس العلم والادب (٣) فكان الشعراء يؤمونه ومعهم رواتهم وكان لفحولهم حلقات خاصة اشهرها حلقة الفرزدق والراعي (٤) وكان الاشراف يخرجون الى المربد لمثل تلك الغاية . وجرت فيه مناظرات البصريين والكوفيين ومماجداتهم . وقد زاره ياقوت الحموي في القرن السادس للهجرة وكتب عنه في سفره : « معجم البلدان » ما ملخصه :

« هو من اشهر محال البصرة . وكان يكون سوق الابل فيه قديما ثم صار محلة عظيمة يسكنها الناس وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء وهو الآن بائن عن البصرة بينهما نحو ثلاثة اميال وكان مابين ذلك كله عامرا وهو الآن خراب ، فصار المربد كالبلدة المفردة في وسط البرية ...

« وينسب اليها جماعة من الرواة منهم سماك بن عطية المربدي البصري ...

---

(١) صحيح كتابة كلمة حوربي ان تحذف الواو والياء اى حرب بضم الميم المشددة وكسر الباء المشددة ايضا . كما تكتب عبدالله فانك لاتكتبها عبدو اللهي بل عبدالله . هكذا يقول علماء المترقيات الذين يحسنون اللغات المسمارية الخط واللغة العربية . ل.ع.

(٢) الاغاني ج ٢ ص ١٨٢

[٣] الاغاني ج ٣ ص ٥١

[٤] الاغاني ج ٢٠ ص ١٦٩

وابو الفضل عباس بن عبدالله بن الربيع بن راشد مولى بني هاشم المربدي حدث عن عباس بن محمد وعبدالله بن محمد بن شاكر حدث عنه ابن المقري وذكر انه سمع منه بمربد البصرة . والقاضي ابو عمرو القاسم بن جعفر بن عبدالواحد العاشمي البصري . قال السلفي : كان ينزل المربد » (١)

وكما كان للبصريين مربدهم ، فقد كان للكوفيين سوقهم يخرج اليها اشرافهم في ضواحي الكوفة فتجري فيها المناشدة الشعرية والمحاكمة الادبية ونحوهما ولئن كان للبصرة فضل اللغة والادب فللكوفة فخارها بشعرها . وقف المختار ابن ابي عبيد في اثناء حروبه بالعراق على اشعار مدفونة في « القصر الابيض » بالكوفة مما يدل على عناية الكوفيين بالشعر (٢) لكن اكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله (٣)

ثم جاء الخلفاء العباسيون فعنوا بترقية العلوم والاداب عناية تضاءلت بجانبها عناية من سبقهم . فأنشأوا المجالس العلمية للعلماء والادباء ، ومشاهير الخلفاء الذين يقرن اسمهم بالنهضة العلمية في العصر العباسي السفاح والمنصور والمهدي والرشيد والمأمون والمستنصر . اسسوا مجامع للترجمة في علوم النجوم والطب والهندسة وعقد هرون الرشيد ووزراؤه البرامكة مجالس ومجامع وسعوا بها نطاق المعارف وانشأوا دواوين الترجمة والمباحثات حتى في بيوتهم .

ويمكن ان تقسم نهضة الترجمة في العصر العباسي الى طورين متميزين :

— الطور الاول —

من نشوء الدولة العباسية الى جلوس المأمون بن الرشيد على اريكة الخلافة اي من سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م) الى سنة ١٩٨هـ (٨١٣ م) .

وقد انتج هذا الطور كتبا مترجمة كثيرة نقلها كتاب ومترجمون نالوا الحظوة عند الخلفاء وكان كل منهم مستقلا بنفسه واكثرهم من المسيحيين والاسرائيليين .

ومن اوائل المترجمين ان لم يكن اولهم عبدالله بن المقفع المتوفى سنة ١٣٢

(١) معجم البلدان طبع اوربه المجلد الرابع ص ٨٨٤

(٢) الخصائص لابن جنى

(٣) المزهر ج ٢ ص ٢٠٦

او ١٤٣ هـ (٧٦٠ م) واشهر مخلفاته المترجمة كتاب «كليلة ودمنة» وكان يدعى في البهلوية والسنسكريتية القديمة « اساطير الحكيم بيدبا » .

ويقول المسعودي (١) ان الخليفة المنصور توفرت عليه الترجمة والانتاج الادبي فنقل في عهده عدة مقالات لارسطوطاليس وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك وكتاب اقليدس في الهندسة وغيرها نقلت عن اليونانية والرومية والسريانية والفارسية . ويقول بعض المحققين ان الكتب المنقولة عن الفارسية والسريانية هي في اصلها ترجمات عن اليونانية .

وعلى عهد المنصور اسس أطباؤه « جرجس بن بختيشوع » وتلامذته واقاربه المدرسة الطبية في بغداد وفيها الف عيسى بن صهاربخت «تلميذ جرجيس» كتابه « فن تحضير الادوية » (الاقراباذين) من اوائل الكتب الطبية العلمية في العربية .

ومن مشاهير ذلك العهد «ثابت بن قرة الحكيم الحراني» كان صيرفيا في حران ثم انتقل الى بغداد فاشتغل بالعلم والطب والفلسفة وعمل مع المنجمين باشراف الخليفة المنصور . وله اولاد واحفاد اشتهروا بالفضل ونبغوا في الرياضيات والفلك .

— الطور الثاني —

هو ازهر عصور النهضة العلمية العربية ، بدىء بتولي المأمون بن هرون الرشيد عرش الخلافة سنة ١٩٨هـ (٨١٣م) وانتهى بانطواء بساط بني العباس في اواسط القرن السابع الهجري واوائل القرن العاشر الميلادي .

فالخليفة المأمون العباسي هو المؤسس لمجمع العلماء (الاكاذيمي) في بغداد جمع فيه طائفة صالحة من المشتغلين بالعلم والفلسفة والترجمة وكان أكبر همهم ان يصيغوا الكتب التي ينقلونها او التي نقلت في قالب يستطيع به طلاب العلم من العرب الوقوف على اسرار العلم والحكمة .

وهو الذي حث « محمد بن موسى » على ان يؤلف مقالته المشهورة في الجبر وهي اول كتاب ألف في العربية في علم الجبر منها نسخة خطية في خزانة بودلي

(١) مروج الذهب طبع باريس ج ٨ ص ٢٩١

بجامعة اكسفورد مكتوب عليها انها نسخت سنة ١٣٤٢م وقد ترجمت الى اللاتينية في عصر الانبعاث العلمي Renaissance ولكنها فقدت الآن .

وقد اسس الخليفة المأمون مدرسة ببغداد سنة ٢١٧ هـ (٨٣٢ م) على نسق المدارس النسطورية والزرادشتية التي كانت مؤسسة قبلا ووسمها بـ « بيت الحكمة » وجعل منهاجها نقل المتون اليونانية في الفلسفة والعلوم الاخرى الى العربية . واوكل امرها الى « الطبيب يحيى بن ماسويه » المتوفى سنة ٢٤٣ هـ (٨٥٧م) وهو ابو زكريا . كان ابوه صيدليا في جنديسابور وثقفه في بغداد جبريل بن بختيشوع وعاصر ثلاثة خلفاء المأمون والواثق والمتوكل ، وخلف مؤلفات كثيرة في الطب باللغتين السريانية والعربية ومقالته في (الحميات) كانت العمدة في موضوعها بوقتها ونقلت الى العبرية واللاتينية .

وقد كتب الخليفة العالم الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المدخرة في بلده فاجابه الى ذلك بعد امتناع فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسليمان صاحب « بيت الحكمة » وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه امرهم بنقله فنقل (١) .

ولكلف المأمون بالعلم والترجمة كثيرا ما كان يعقد شروط الصلح مع بعض ملوك الروم الذين يحاربهم على دفع الغرامة كتبا توضع بين ايدي العرب وتترجم الى لسانهم .

وكان ندي اليدين على التراجمة يعطيهم زنة ما يترجمونه له من الكتب ذهبا ، واشتهر بوسمه الكتب المترجمة له بسمة خاصة تتميز بها عن غيرها ، ووضع الفهارس لخزائن الكتب على طريقة عصرية . وذكر غريغوريوس ابن العبري الملطي مؤلف « مختصر تاريخ الدول » ان المأمون كان يحرض الناس على قراءة تلك الترجمات ويرغبهم في تعلمها . لذلك كثر لديه المترجمون عن الفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية والكلدانية واليونانية واللاتينية والمؤلفون في جميع الفنون العربية والدخيلة .

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٤٣

هذه هي الجادة التي سلكها اعلام الخلفاء في خلق نهضة علمية سطع نورها في المشرق والمغرب ولم يبرزلها نظير إلا في حركة الانبعاث (الرنيسانس) في ايطالية بعد سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح في اواخر القرون الوسطى.

ويدون التاريخ اسماء جماعة هم اساتذة بيت الحكمة واصحاب الجهود العلمية في عصرهم وكلهم تلامذة يحيى وتابعوه نخص بالذكر منهم :

« حنين بن اسحاق العبادي » النسطوري درس في بغداد والاسكندرية وفي الاخيرة اتقن اللغة اليونانية ، اشتغل بالترجمة زمنا من اليونانية الى السريانية . ومن اشغاله العلمية : الايساغوجي لفرفريوس وارمانوطيقا لارسطوطاليس وجزءا من الانالبطيقا ومقالة ارسطوطاليس في الروح وجزءا من الميثافيزيقا وتلخيصات نيقولاوس الدمشقي وتعليقات الاسكندر الافروديسي والجزء الاعظم من مؤلفات جالينوس وديوسقورس وبولس الاجانيطي وابقراط وجزءا من منطق ارسطوطاليس الاورغانون Organon وترجم اصول اقليدس الى العربية و «جمهورية افلاطون» وكتاب « ثيماوس » لافلاطون وكتاب ارسطوطاليس « في المعارف » وقد توفي سنة ٢٦٣هـ (٨٧٦م) . وابنه « اسحق بن حنين العبادي » الذي ترجم الى العربية كثيرا من الكتب منها « السفسطة » لافلاطون ومقالة ارسطوطاليس « في الروح ».

ويقول الباحثة اسماعيل بك مظهر في مقالته «تاريخ تطور الفكر العربي» « كان القرن الرابع الهجري العصر الذهبي لتاريخ الترجمة يرجع فضله الى ثلة من المسيحيين كانوا يتكلمون السريانية واختصوا الترجمات التي درسوها في لغتهم (١) » .

وقد نقلت عن اليونانية مباشرة كثير من الآثار ومن اشهر مترجمة المترجمين :

« ابو بشر متى بن يونس » المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٣٩م) وقد ترجم الى العربية انالبطيقا الثانية Analytica Posteriora والبويطيقا (الشعر) لارسطوطاليس

(١) المقتطف جزء آب ١٩٢٥ والكاتب اول عالم مسلم ترجم كتاب « اصل الانواع » لتاراس دارون زعيم الفلاسفة الماديين

وغيرها نقلها عن السريانية وله مؤلفات مبتكرة في التعليق على قاطيغورياس اي المقولات لارسطوطاليس و الايساغوجي لفرفوريوس .

و« ابوزكريا يحيى بن عدي التكريتي » المتوفى سنة ٣٦٤هـ (٩٧٤م) ترجم كتبا كثيرة عن ارسطوطاليس وكتاب القوانين لافلاطون . وكان ملازما للنسخ يكتب خطا قاعدا بينا في اليوم والليلة مئة ورقة واكثر .

و « ابو علي عيسى بن زارة » الذي ترجم كتاب « قاطيغورياس » عن ارسطوطاليس والتاريخ الطبيعي وكتاب الحيوانات مع تعليقات يوحنا فيلوبونس .

وقد نقل « ابو بكر احمد بن علي بن قيس الكلداني » المعروف بـ « ابن وحشية » الذي عاش سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م) كتاب « الفلاحة النبطية » عن الكلدانية في خمسة اجزاء منه نسخ خطية في برلين وليدن واكسفورد ودار الآثار البريطانية وباريس ودار الكتب المصرية . وقد ظهر للعلماء المحدثين ان الكتاب المذكور هو من وضعه وليس بترجمة من اصل . (راجع ما ذكره الايطالي كرلونلينو في كتابه علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ص ٢٠٥ الى ٢١٠)

ونقل « قسطا بن لوقا » كتاب « الفلاحة اليونانية » عن السريانية .

وبهذه الوسيلة لم يبق ضرب من العلوم والصنائع والفنون إلا نقلت كتبه الى العربية وتعلمها العرب ثم علموها . ولم يفتهم من الفنون سوى الجراحة في الطب والنحاتة والتصوير من الآداب الفتانة . لانها من الامور المحرمة في الشرع الاسلامي . وهكذا اجتمع عند العرب خلاصة علوم الاقدمين من يونان وروم وسريان وفرس وهنود وكلدان وانباط ومصريين وغيرهم ممن درج قبلهم وعنوا بها مدة من الدهر ، وعنهم اقتبسها الافرنج حين تنبهت فطنتهم وثابت هممهم من سباتها فيما يسمونه عصر الانبعاث » (١)

ويجب ان لا يفوتنا ذكر جمعية وهي وان لم تكن لغوية ادبية الا انه كان لها اثر في النهضة العلمية الفلسفية وهي جمعية (اخوان الصفا) التي اسست في البصرة في اواسط القرن الرابع الهجري (المائة العاشرة للمسيح) ذكروا من اعضائها

(١) تاريخ الآداب العربية من نشأتها الى ايامنا ص ٤١٣ بتصرف قليل

خمسة هم : ابو سليمان محمد بن مشير البستي ويعرف بالمقدسي ، وابو الحسن علي بن هرون الزنجاني ، ومحمد بن احمد الذهرجاري ، والعوفي ، وزيد بن رفاعة .

وكانوا يجتمعون سرا تسترا عن الذين يخالفونهم ويضادونهم فقرروا في جلساتهم المتعددة خلاصة الفلسفة الاسلامية بعد ان وقفوا بين ابحاث الفلاسفة المسلمين والاراء اليونانية والهندية والفارسية . فتوصلوا الى مذهب خاص اساسه ان الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولاسبيل الى غسلها وتطهيرها إلّا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتماعية وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال (١) .

ودونوا فلسفتهم في خمسين رسالة سميت « رسائل اخوان الصفا » وقد ضمنوها كل علم طبيعي اورياضي او فلسفي اوالهي او عقلي وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها . ويظهر من دراستها ان مؤلفيها دونوها بعد البحث العميق والروية الطويلة . وفيها بحث من نوع فلسفة النشؤ والارتقاء . وفي ذيلها فصل في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والشفقة والغرض منها التعاضد في الدين وشروط قبول الاخوان فيها . وقد اغفل المؤلفون اسماءهم من هذا الكتاب بسبب ان الفلاسفة كانوا متهمين بالكفر في هذا العصر وكان الانتساب الى الفلسفة مرادفا للانتساب الى التعطيل حتى شاعت النقمة على المأمون نفسه لانه كان السبب في نقل الفلسفة الى اللغة العربية حتى قال ابن تيمية بعد ذلك : « ما اظن الله يغفل عن المأمون ولابد ان يعاقبه بما ادخله على هذه الامة » .

وطبعت هذه الرسائل في اوربة والهند ومصر ، واتقنها طبعة ديتريشي في ليبسك سنة ١٨٨٣

❦

ثم دب دبيب الفساد في جسم الحكومة العباسية في اواسط القرن السابع الهجري واواخر القرن العاشر الميلادي فانتقض حبل دولتها واستولى على البلاد المغول واعقبهم العثمانيون بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون فتدهورت اللغة العربية ودرست معالم معاهدها وامحت آثار محافيها .

(١) جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٤٢